

Adi Ophir, Michal Givoni and Sari Hanafi (eds.).

*The Power of Inclusive Exclusion: Anatomy of Israeli Rule in the Occupied Palestinian Territories*

(New York: Zone Books, 2009). 641 p.

## سلطة الإقصاء الشامل: تشريح الحكم الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة(\*)

فانسان روماني (\*\*\*)

جامعة كيبيك، مونتريال - كندا.

الإسرائيلي. لقد أطر الحياة اليومية للفلسطينيين زيادة الفقر، والإكراه، والشرذمة، والاستعمار واليأس.

وما يلفت النظر، طوال هذه السنوات الطويلة، والمتغيرات الدراماتيكية، هو استمرارية التحكم العسكري في الأراضي الفلسطينية المحتلة من قبل إسرائيل. لقد اعتُبر أو تصور غالباً أن الاحتلال مؤقت، وهذا ما كان موضع انتقاد أو إشادة للأهداف السياسية للاحتلال، والوسائل والآثار، كما بيّنه المحررون في المقدمة (ص ١٥ - ٢٧). لقد بيّنوا أنه نادراً ما تمّ تحليل ذلك باعتباره نظاماً متماسكاً وطويل الأمد، ممأسساً في النظام السياسي الإسرائيلي، بحيث يشكل رابطاً إخضاعياً بين المجتمعين، وقد استمر، هذا النظام هناك لمدة ٤٤ عاماً، منذ غزو عام ١٩٦٧.

- ١ -

لقد أعادت أحداث درامية، بدءاً من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ مع الانتفاضة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، تشكيل المشهد السياسي الفلسطيني، بشكل عميق، ففي عام ٢٠٠٤، وافت المنية ياسر عرفات، رئيس المؤسسات الرئيسية للحركة الوطنية الفلسطينية لعقود عدة. وقتل أكثر من ٦٠٠٠ من الفلسطينيين و١٠٠٠ من الإسرائيليين - ومعظمهم من المدنيين من كلا الجانبين، ومنذ العام ٢٠٠٠، وهذا العدد مستمر في الارتفاع. وثمة عنصر آخر من هذه السلسلة من الأحداث هو التقسيم الجغرافي - السياسي في الأراضي الفلسطينية المحتلة بين قطاع غزة التي تحكمه «حماس»، والضفة الغربية الذي تديره «حركة فتح» وتحت سيطرة الجيش

(\*) صدر الكتاب باللغة العربية تحت العنوان نفسه عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ٢٠١٢

(٧٩٩ ص).

romani.vincent@uqam.ca.

(\*\*) البريد الإلكتروني:

أبو سعدة (تعزير التبعية: الزراعة الفلسطينية في ظل الاحتلال الإسرائيلي)، ليل فرسخ (من الهيمنة إلى الدمار: الاقتصاد الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي) ونيف غوردون وداني فيلك (تدمير مجتمع المخاطرة وهيمنة حماس).

بالأحرى، يتناول الكتاب نطاق وعمق وعمل مصفوفة السيطرة الإسرائيلية التي حولت الفلسطينيين الى ذوات خاضعة في حياتهم اليومية.

تعالج معظم الفصول بالتالي، حكم الإدارة العسكرية، من وجهات نظر مختلفة: القانونية (بن نفتالي، غروس، ميخائيلي)، التاريخية (شنهاف وبيردا، هاندل)، الجغرافية (أزولاي، هاندل)، الاجتماعية (شامير، غوردون، فيلك، أوفير) والاقتصادية (فرسخ، أبو سعدة، الغازي) والعسكرية (وايزمان) والسياسية (غوردون، وآخرون). في حد ذاته، يعكس هذا الكتاب فكرة التباين والانفصال، حيث هناك ثلاثة كتّاب فلسطينيين، فقط.

ترسم هذه المجموعة من المقالات المثيرة للاهتمام صورة واسعة وعميقة حول الحكم الاسرائيلي في الأرض الفلسطينية المحتلة. وليس فقط فهم العلاقة غير المتكافئة بين إسرائيل والفلسطينيين على المستوى الكلي الاجتماعية (Macro-social Level)، ولكن أيضاً حول أدوات الحوكمة الجزئية المستخدمة من قبل الإدارة الإسرائيلية: نكتشف حميمية وهيمنة مصفوفة السيطرة، وأيضاً أبعادها الذاتية. يساعدنا الكتاب على فهم كيف تسيطر إسرائيل على الزمن الاجتماعي والزمن الفردي، عن

لقد استند عمل ساري حنفي وعدي أوفير، وميخال غيفوني على هذه الفرضية الرئيسية للاستمرارية. هذه الفرضية لا تتناول البعد الزمني وحسب، ولكن أيضاً المكاني، إذ اعتبر الاحتلال كجزء من نظام إقليمي (Territorial) معقد. هذا يعني أنه من أجل التحليل، يطبق الكتاب نظرياً «حل الدولة الواحدة»: نجاحهم التفسيري قد أوضح مدى فشل العملية الحالية للحركة الوطنية الفلسطينية التي تتطلع إلى إقامة دولة منفصلة.

## - ٢ -

يستحوذ عنوان هذا الكتاب على هذه المفارقة التاريخية غير العادية من عملية متعددة الأبعاد للدمج الديموغرافية والإقصاء الديمقراطي للفلسطينيين في/من النظام السياسي الإسرائيلي. لقد ساعد الباحثون الثمانية عشر الذين ساهموا في هذا الكتاب على فهم الإرداف السياسي (Political Oxymoron) للسيطرة المتنامية والعميقة للسكان الفلسطينيين من قبل الجيش الإسرائيلي، في السياق الذي تأطره احتمالية متناقضة لقيام دولة فلسطينية مستقلة، وحصول انفصال إثني.

في الواقع، يشكّل الكتاب محاولة ناجحة للتفكير في احتلال كنظام سلطة متماسك ومستقر. إنه يثير منظوراً متوسط المدى، لأنه لا يتناول بعمق النظام السياسي الإسرائيلي، كما أنه لا يركز على الآثار الطويلة الأمد للاحتلال في المجتمع الفلسطيني، باستثناء الفصول التي كتبها ساري حنفي (مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية بين فضاء الاستثناء وموقع المقاومة)، كارولين

ساعدوا على شرح الحكم الإسرائيلي باعتباره بنية، وأنه يجلب انتباهنا إلى حميمية وذاتية التحليل السوسولوجي الميكروي، والأبعاد الزمنية للسلطة. ولكن بابتعادهم عن المقاربة الكلاسيكية من أعلى إلى أسفل للأنظمة في العلوم السياسية، فإنهم يشتمون أيضاً مواقع العنف من خلال العديد من الأوقات والأماكن والوكلاء: فكثير من المساهمات تجيب عن السؤال «كيف يمارس العنف؟» بدلاً من «من الذي يُحدد أو يقرّر ذلك؟». كثير من الكتاب يربطون بالكاد بين المنحى السياسي الإسرائيلي الذي عرفوه والنظام، مما أدى إلى انطباع أن هناك مجموعة من الآثار غير المقصودة من العديد من الفاعلين المحليين والإجراءات، أكثر من أن هناك خطة متماسكة واسعة، وكأن هناك بنية عائمة بين إسرائيل والفلسطينيين.

إذا كنا نحاول إيجاد عقلنة لسياسات غير معقلنة، فإن توسيع مفهوم «النظام» قد تفقده بعضاً من أهميته. باستثناء فصل غادي الغازي حول العلاقات بين قرية بلعين ومستوطنة موديعين عيليت، فلم يقل الكثير عن المستوطنين: نظام المستوطنات، المسكون من نصف مليون مستوطن، إذا شملنا القدس، الذي يلعب دوراً أساسياً في الاحتلال، وهناك حاجة إلى فتح هذا الصندوق الأسود، كما فعل ذلك ببراعة هذا الكاتب، رابطاً ذلك بأبعاد أخرى للاحتلال. واضح أنه لاستحالة الوصول الى قطاع غزة، فإن خصوصية هذا القطاع لم تؤخذ دائماً بعين الاعتبار، على الرغم من أنه كان هناك امكانية لشمول ذلك في العديد من فصول الكتاب.

طريق الإكراه المباشر من خلال استخدام التعقيم والتعسف، وإيجاد حالة من عدم اليقين الوجودي (خاصة، أزولاي وأوفير حول «نظام العنف»، شامير حول «الاحتلال بوصفه تضليلاً: استحالة الحدود»، وغوردون وفليك حول «تدمير مجتمع المخاطرة»). ففي محاولتهم هذه فتحوا الصندوق الأسود للإدارة العسكرية، وكأنه شبح دائم وافتراضي (virtual) على وجود الفلسطينيين، والتحكم بحياتهم وآمالهم، ولكن من بعيد، من قبل وكلاء ومن خلال نقاط مخفية للاتصال بهم.

لقد شرح الكتاب مطوّلاً الجهاز البيروقراطي الذي لا يمكن التنبؤ بألية عمله، وبشرذمة فراغه، وبالتالي تنظيم حركة التنقل من خلال قوانين متناقضة. يوضح نيف غوردون، في مساهمته (من الاستعمار الاستيطاني إلى الفصل: استكشاف بنية الاحتلال الإسرائيلي) وكذلك من خلال كتابه **الاحتلال الإسرائيلي** الذي نشره مؤخراً، نقطة تحول الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ - ١٩٩٢، عندما تم تبني نظام الفصل من جانب إسرائيل ضد نظام الاستعمار الاستيطاني السابق، ففي حين يعكس الاستعمار الاستيطاني منطق الاحتلال، يقدم المبدأ الثاني حلاً مزمعوماً للاحتلال، فهو - عملياً، يهدف إلى إعادة تنظيم سلطة الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي المحتلة.

بالاعتماد على ميشيل فوكو، واستخدام من قبل حنفي وأوفير وغيفوني وزملائهم لمفهوم «النظام» من أجل تحليل للاحتلال، مفيد ومثير للقلق الى حد ما، فقد

اليومية للاحتلال من خلال جعل العنف شيئاً عادياً.

لقد برز كتاب حنفي وأوفير وغيفوني مقارنة بالأدبيات حول فلسطين وإسرائيل بسبب إبداعه وغناه: إنه يشمل في الواقع أربعة مشاريع. المشروع الأول يتمثل في تحرير ١٣ فصلاً مكتوباً. المشروع الثاني هو معرض للوثائق التي تنتجها الإدارة العسكرية الإسرائيلية، من خلال عشرة ملفات من «أوراق الاحتلال» لميخال غيفوني، وذلك «نظراً إلى غموض نظام الاحتلال»، بحيث نجح مشروع الأرشفة هذا في بلورة القصة للقارئ المرتاب. أما المشروع الثالث، فقد أعطى معنى مرثياً آخر للواقع من خلال خمسة ملفات لصور بالأسود والأبيض التي أخذتهم ونظمتهم أريئيل أزولاي بطريقة ذكية. ويتكوّن المشروع الرابع في تسلسل زمني للاحتلال من ٣١ صفحة، من عام ١٩٦٧ وحتى عام ٢٠٠٧، جمعها أريئيل هاندل، التي تعطي نظرة حادة أخرى عن العنف الممارس ضد الفلسطينيين، وعمق وتغير أنماط الاحتلال.

بالإضافة إلى غنى، وشجاعة وإبداع هذا الكتاب، يمكن للمرء أن يصف هذا العمل بالجميل، على الرغم من هول الموضوع والمقاربة المستخدمة، بحيث نجح في شرح ذلك للقارئ □

### - ٣ -

هذا الكتاب يكمل نوعاً جديداً من الأدبيات في إسرائيل وفلسطين، ولدت من انتفاضة عام ٢٠٠٠، والتي بددت الأمل في التوصل إلى تسوية سياسية، ودمّرت العديد من المؤسسات الفلسطينية التابعة لمرحلة أوسلو.

باحثو الدراسات الاجتماعية، وخاصة السياسية، حرموا فجأة من الأطر النظرية الواسعة (الدولة، تشكيل الدولة، بناء الدولة، الخ)، إذ توجهوا إلى نظريات ومنهجيات الأنثروبولوجية وميكرو - اجتماعية العميقة. هذا ربما يوضح التوجه في هذا الكتاب، عند ميشيل فوكو ونموذجه في قراءة للسلطة المنتشرة في كل مكان.

وفي حين أن واحدة من الأفكار الرئيسية لهذا الكتاب هو تجاوز المرحلة الحربية من أجل تأكيد استمرارية الاحتلال، فإن الفصل المتميز والرائع لإيال وايزمان حول «وسائل الموت» هو مع ذلك ضروري؛ فهو يسلط الضوء على الآلية العسكرية «الباردة» لإدارة الموت، التي بنيت من قبل الجهات الفاعلة لها، على أنها «أهون الشرّين». وهو ما يعني أنه يتم تسويق سياسة «القتل المستهدف» كأداة «إنسانية» التي تمنع الحروب واسعة النطاق، ويسمح في نهاية المطاف بالإدارة